مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٣٥٦
التاريخ ٢٠١٩/١١/٢٩

١٠/٨/١/٤
مهدية الى الحضرة الحيدرية المقدسة
علي عباس عبد الحسين
مدير قسم الاعداد - كلية الآداب

التصدير

مجلة علمية فصلية محكمة تصدر
عن كلية الآداب - جامعة الكوفة
العدد الرابع - السنة الثانية
٢٠٠٤م

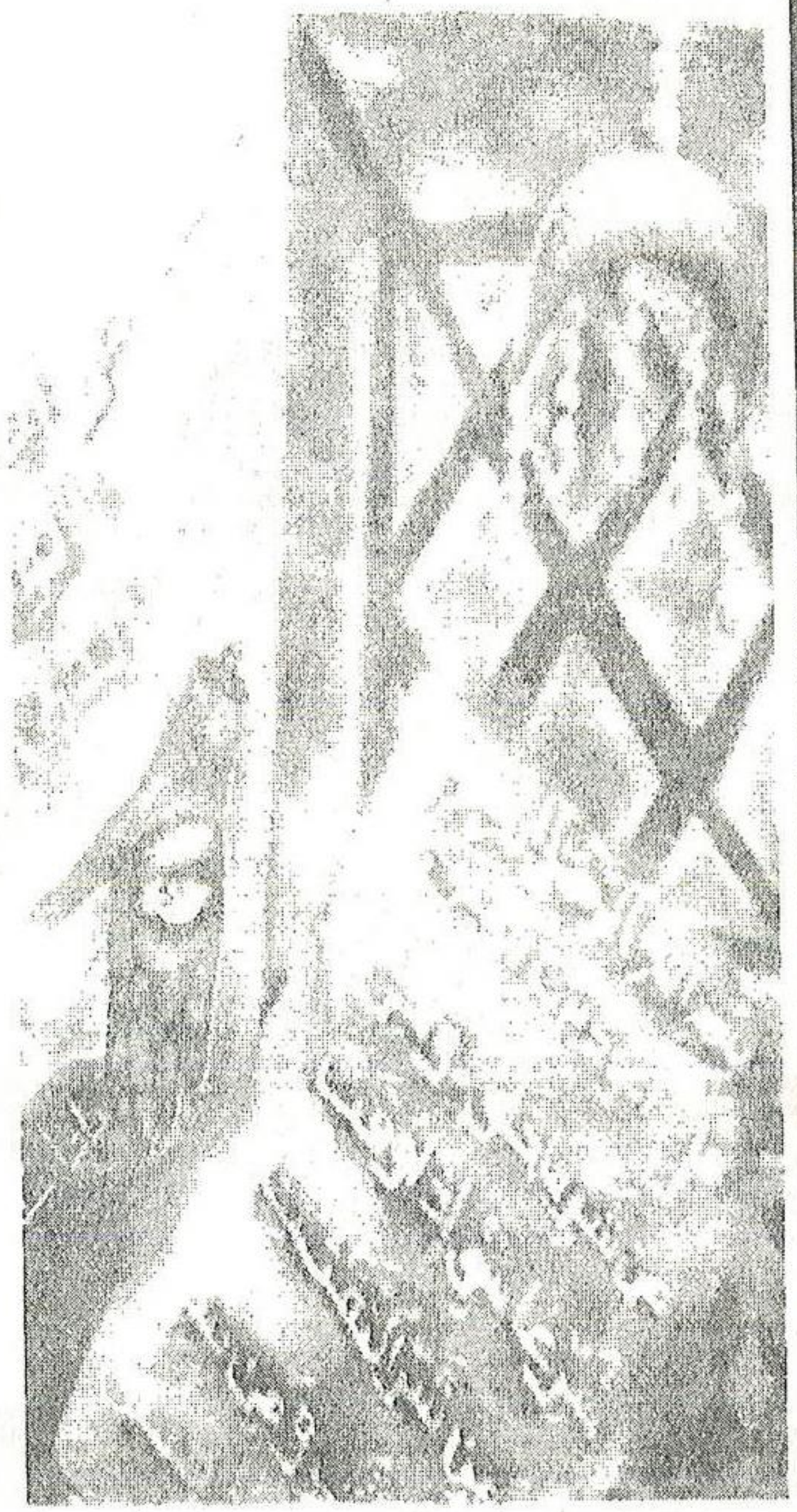

بريشة الفنانة فدعة عباس

رئيس التحرير
أ.د. عبد الأمير كاظم زاهد

نائب رئيس التحرير
د. علاء حسين الرهيمي

هيأة التحرير
د. خليل عبد السادة إبراهيم
د. علي عظم محمد عباس
د. محمد حسن عبد الرحمن
د. عبد الصاحب البغدادي
د. حمزة جابر سلمان

الهيأة الاستشارية
أ.د. محسن عبد الحميد
أ.د. عناد غزوان
أ.د. صادق السوداني
أ.د. علي حسين الجابري
أ.د. وميض جمل عمر نظمي
أ.د. عبد الاله رزوقي كربل

مدير التحرير
علي عباس عبد الحسين

التنضيد و التنسيق الالكتروني
علي صالح نور الاعرجي
آلاء محمد محسن
نسرين داخل فهد

الادارة المالية
حيدر سعد

التصحيح اللغوي
مديحة خضير كاظم

الوحي المحمدي في المنظور الاستشراقي

م.م مشتاق بشير حمود الغزالي

المقدمة

منذُ أن بدأ العالم الغربي (المسيحي) يتعرف على الدين الإسلامي ومؤسسه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى اله ، أي منذُ القرون الوسطى الأوربية وحتى وقتنا الحاضر . والدراسات الاستشراقية المتخصصة في السيرة النبوية و علوم القرآن لا تكاد تترك فرصة إلا وتتطرق لِموضوع الوحي المحمدي .

ولاشك في هذا ، فالوحي كظاهرة هي مرتبطة بالنبوة ، ولِذلك فمن مقومات تصديق نبوة أي نبي الاعتراف بحقيقة ما نَزلَ عليهِ من وحي . ولأن اغلب المستشرقين تأثروا بالجانب العقائدي الذي يؤمنون به والذي لا يتفق تماماً مع الدين الإسلامي ، فقد حاولوا من خلال دراسة الوحي المحمدي والتركيز عليهِ من إنكار نبوة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) وتفسير هذهِ الظاهرة ، بأي اتجاه لا يتوافق مع الحقيقة القائلة بأن الوحي المحمدي وحي إلهي .

ولإبراز تلك الدراسات الاستشراقية وطبيعة آرائها في الوحي المحمدي ، والتفسيرات التي أنتجتها أقلامهم قديماً وحديثاً والرؤية الاستشراقية الأخيرة لهذا الموضوع . ارتأيت الخوض فيه ، مبيناً في الوقت نفسهُ ما هية الوحي كمفهوم وصورهِ و أشكالهِ كما عبر عنها القرآن الكريم والروايات المذكورة عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) .

الوحي

لم تنحصر كلمة الوحي بمعنى واحد ، بل تعددت وكثرت معانيها ، و أشار أبن منظور[1] إلى أن كلمة الوحي تعني الإشارة والرّسالة و الإلهام والكلام الَخفيّ وكل ما أُلقيّ إلى غيرّ.

فيقال : وحَيتُ إليهِ الكلامَ وأوحَيتُ .و وَحَى وحياً وأوحَى أي كتب . وأوحى إليهِ أي بَعثهُ . وأوَحى إليهِ أي ألهَمه . ويقال وحَى إليهِ وأوَحى أي كلمهُ بكلام يُخفيه عن غيره . ووَحى إليهِ وأوَحى بمعنى أومأ[2].

كما يبدو أن للوحي مداليل كثيرة ، يمكن أن نقف عليها من خلال التحديد الذي جاءَ في النص الأتي : " أولاً : أن اصل الوحي في اللغة كلها إسرار وإعلام في خفاء ...

ثانياً : أن اشتقاق الوحي بمعنى السرعة لأن الوحي يجيء بسرعة ويتلقى بسرعة ... ثالثاً : أن أصل المادة السرعة والخفاء معاً، فالوحي : الإعلام السريع الخفي ... رابعاً :أن أصل المادة هو إلقاء الشيء إلى الغير ... " (٣) .

فالوحي إذن هو الإعلام الخفي السريع مثلما أكد ذلك القرآن الكريم في آيات عدّة . ففي الإلهام الفطري للإنسان قال تعالى : " وأحينا إلى أم موسى أن أرضعيهِ " (٤) . وقولهُ : " وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي " (٥) ، وفي الإلهام الفطري للحيوان كالذي في قولهِ تعالى : " وأوحى ربك إلى النحل أن آتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجرِ ومما يعرشون " (٦) . وفي الإلهام الإلهي الخاص بالأنبياء ، وهو ما يتعلق بالأوامر الإلهية التي لا تأتي دائماً على صورة واحدة وانما تتعدد وتختلف من صورة لأُخرى كما سنُلاحظ ذلك لاحقاً .

ولقد تشرف سيدنا ونبينا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) بالوحي الإلهي طيلة مُدة رسالتهِ ، وبذلك التشريف الإلهي ، فقد أشترك مع من سبقهُ من الأنبياء بهذهِ الميزة الشريفة ، لم يكن الوحي المحمدي يختلف عما سبق من وحي الانبياء ولم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم)بدعا من الرسل بما ارسل به، بل أن ظاهرة الوحي هي متماثلة عند جميع الأنبياء بدءاً من نبي الله نوح (عليهِ السلام) وانتهاءً بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، هذا التماثل النابع من مصدر واحد ، كما في قولهُ تعالى : " إنا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوح والنبيينَ من بعدهِ ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلمَ الله موسى تكليماً " (٧) . ولذلك حرص القرآن الكريم على تسمية ما نزل على قلب محمد (صلى الله عليه وسلم) وحياً ، ليشابه مدلول الوحي عند جميع النبيين تشابه اللفظ الدال على المعنى نفس (٨) . قولهُ تعالى : " والنجم إذا هوى . ما ضلَ صاحبكم وما غوى . وما ينطقُ عن الهوى ، إن هو إلا وحيٌ يوحى " (٩) .

صور الوحي المحمدي

لم يكن الوحي المحمدي على صورة واحدة ، بل تعددت واختلفت صور الإيحاء الإلهي إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، شأنهُ في ذلك شأن باقي الأنبياء ، ولقد حدد القرآن الكريم هذهِ الصور تحديداً دقيقاً في قولهِ تعالى : " وما كان لبشر أن يُكلمهُ الله إلاّ وَحياً أو من وراءِ حجاب أو يُرسلَ رَسولاً فيوحي بإذنهِ ما يَشَاءُ إنهُ عَلّيُ حَكيمٌ "(١٠) . الآية الكريمة توضح

بجلاء صور عدة للوحي الإلهي ، ضمن مضامين كلامه تعالى ما يتلقاه الأنبياء (عليهم السلام) منه جل وعلا بالوحي وعلى هذا ، لا موجب لعد الاستثناء في قوله "إلا وحياً" منقطعاً (كما يرى الطباطبائي) [11] ، بل هو الوحي ، والقسمان المذكوران بعده "ما كان لمن وراء حجاب" ، "وما كان لرسول" ، نوع من تكليمه للبشر .

ثم أن ظاهر الآية الكريمة هو تقسيم الوحي إلى عدة صور ، إذ ظهر القسمان الآخران بقيد الحجاب والرسول الذي يوحي إلى النبي ، في حين لم يقيد القسم الأول بشيء والظاهر أنه أريد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلاً ، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد ، وهو الحجاب أو الرسول الموحي ، وكل منهما واسطة غير أن الفرق ، أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه ، والحجاب واسطة ليس بموح ، وأنما الوحي لمن ورائه . وعليه فأن القسم الثالث : " أو يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما يشاء "وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه ، قال تعالى : "قل من كان عدواً لجبريل فأنه نزله على قلبك بأذن الله" [12] . والموحي مع ذلك هو الله سبحانه وتعالى كما قال : " بما أوحينا إليك القرآن" [13] ، وأن القسم الثاني : "أو من وراء حجاب "وحي مع واسطة وهي الحجاب ، غير أن هذه الواسطة لا توحي كما في القسم الثالث ، وأنما ليبتدأ الوحي لمن ورائه ، وليس وراء بمعنى خلف ، وأنما هو الخارج عن الشيء المحيط به كقوله تعالى : " والله من ورائهم محيط " [14] . ومن هذا الباب ما أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم . وأن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض ، وأن الوحي في جميع هذه الأقسام لا يخرج عن كونه صادر عن الذات العليا الله جل جلاله وتعالى قدره [15] .

أن أول صور الوحي المحمدي ، كان الرؤيا الصادقة ، وهي جانب مهم من جوانب التلقي الغيبي في نبوات الأنبياء (عليهم السلام) ، لأن تلقي الوحي عن طريق المنامات وجهاً من وجوه الوحي التي كانت للعديد من الأنبياء (عليهم السلام) وقد ذكر القرآن الكريم هذا الأمر بوضوح في الإشارة إلى رؤيا إبراهيم [16] (عليه السلام) ، وكذلك إلى رؤيا يوسف [17] (عليه السلام) . ومن الطبيعي أن لا يختلف نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذا التشريف والتكريم الإلهي عن غيره من الأنبياء ، إذ أن الرؤيا في نبوته (صلى الله عليه

وسلم) مثلت أحد الجوانب المهمة التي شهدتها عملية تلقيهِ للوحي ، وهي أيضاً أحد العوامل التمهيدية التي هيأت لبزوغ نبوتهِ (صلى الله عليه وسلم) وبداية رسالتهِ[١٨] .

وبشأن الرؤيا الصادقة التي رافقت النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثهِ ، ورد عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت :" أول ما بدأ بهِ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ... " [١٩] .

وقد اتفق مجموعة من المفسرين على أن الرؤيا الصادقة هي جزء من النبوة لأن فيها ما يعجز من قبيل الأطلاع على شيء من علم الغيب .

والصورة الثانية للوحي المحمدي ، هي الوحي بواسطة المَلَك . وفي هذهِ الصورة ، نجد الأمين جبريل (عليه السلام) وقد تكفل بنقل الكلام الإلهي وتبليغهِ إلى النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، وقد عبّر القرآن الكريم عن الوحي بوساطة المَلَك في قولهِ تعالى :" نَزلَ به الروُحُ الأمينُ . على قلبك لتكون من المنذرينَ " [٢٠] . وقوله جّل وعلا :" قُل من كان عدواً لجبريل فأنهُ نزّلهُ على قلبك بأذن الله ... " [٢١]. وقولهُ :" إنهُ لَقولُ رسول كريم ذي قُوْة عند ذي العرشِ مكين " [٢٢] .

وأتخذ الوحي بوساطة المَلَك إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عدة أشكال قد أجملها صاحب كتاب(الوحي ودلالاتهِ في القرآن الكريم والفكر الإسلامي) [٢٣] ، بالآتي :

أولاً :ـ مواجهة جبريل (عليهِ السلام) للنبي (صلى الله عليه وسلم) في صورتهِ الملكية الحقيقية التي خلقهُ الله عليها ، وقيل أنهُ ما من نبي رآه على تلك الصورة ، إلا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقد حدث ذلك مرتين .

ثانياً :ـ تمثل جبريل (عليهِ السلام) في صورة بشرية ، فيراهُ النبي (صلى الله عليه وسلم) في صورة إنسانية ، ويتحدث معهُ . وهذا ما أكدتهُ الرواية المنقولة عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) :" أن الحارث بن هشام سأل رسول الله : قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي . فقال (صلى الله عليه وسلم) ... وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً يكلمني فأعي ما يقول " [٢٤] .

ثالثاً :ـ تمثل جبريل (عليهِ السلام) للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في النوم ، وذلك بأن يأتيه المَلَك جبريل (عليهِ السلام) في النوم بصورة بشرية غير معروفة لديهِ ، ليبُلغهُ بما أمر الله تعالى بهِ .

أما الصورة الثالثة من الوحي المحمدي، فهي الوحي المباشر ، الذي يتم بدون أي شكل من أشكال الوسائط ، عندما يكون الوحي منهُ تعالى مباشرةً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) . على الرغم من هذهِ الصورة من الوحي لا يوجد ما يؤكد تكرارها ، آلا أنها قد تمت فعلاً ، وأكد ذلك قول الله تعالى في كتابهِ الكريم :" ثم دنَا فتدلّى فكان قَابَ قوسين أو أدنى فأوحى إلى عَبدهِ ما أوحى " (٢٥) . وتظهر الإشارة بوضوح في هذهِ الآيات لتكليم الله سبحانه وتعالى نبيهُ محمد (صلى الله عليه وسلم) دون أي واسطة (٢٦) .

رؤية المستشرقين للوحي المحمدي

الوحي كظاهرة ارتبطت بالنبوة وعلى هذا الأساس ، فمن مقومات تصديق أي نبي ، هي حقيقة المصدر الإلهي للوحي ، ولما كان الوحي الأساس الأول والجوهر الحقيقي لمعنى النبوة والرسالة والواسطة للأخبار الغيبية والأوامر الإلهية في قضايا العقيدة والشريعة . فقد أهتم المستشرقون ومنذُ وقت مبكر ، يعود إلى العصور الوسطى الأوربية بدراسة الوحي ومحاولة إيجاد تفسير مناسب لهذه الظاهرة ، يتوافق مع التوجهات الاستشراقية الهادفة إلى إبعاد الوحي المحمدي عن حقيقة صدورهِ الإلهي ، وجعلهِ نابعاً من ذاتهِ عليهِ أفضل الصلاة والسلام.

فكانت التصورات الأولى ، تصورات ساذجة بعيدة عن الواقع متأثرة بتيار الكُره والحقد الكبيرين خلال مدة العصور الوسطى ، فضلا عن قلة المعلومات عن رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) وتشويه ما وصل منها بوساطة المصادر البيزنطية . فمن أوائل من تناول هذا الموضوع هو جيبرت اوف نوجنت ، الذي صوّر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) على أنهُ أستخدم بقرةً قام بتدريبها ، لتظهر أمام الناسَ بأنها تحمل إليه الوحي من الله تعالى ، وهذا نموذج مما جاء في تلك الكتابات :" وأمرَ محمد المؤمنين بهِ أن يصوموا ثلاثة أيام ، ثم أعلن في هدوء أنهُ سيريهم كيف ينزل الوحي ،وفجاءة ظهرت بقرة وانتزعت من بين قرنيها كتاباً منزلاً وركعت البقرة أمام النبي " (٢٧) . في حين أن الأسقف هيلدبرت (Hildbert) قد ذكر في كتاباتهِ عن حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ،أنهُ استعان في تأكيد صدق دعوتهِ بثور دربهُ سراً ، فأصبح قادراً على توجيهه كيف شاء ، فكان الثور يركع أمام النبي كلما أمرهُ بذلك (٢٨) . وعلى هذه الشاكله كانت تنسج الافتراءات والمزاعم لتجعل منها تارة بقرة وأخرى ثوراً وثالثاً جملاً (٢٩) . وعلى أية حال فأن مستشرقي العصور الوسطى لم ينظروا إلى الوحي

المحمدي ، إلا كنوع من الأحتيال تمت ممارستهُ لإقناع الناس بالدين الجديد (الدين الإسلامي) ، وأبعاد الشك عن قلوبهم باستخدام هذهِ الحيوانات المُدربه.

والحقيقة أن ظاهرة الوحي المحمدي لم تُطرح عند المستشرقين برؤيا واحدة ، بل حملت كتاباتهم رؤى عديدة خلال العصر الحديث يمكن أن نقف عليها :

أولاً :بالوحي المحمدي بمعنى نوبات من الصرع .

على ما يبدو أن إطلاع بعض المستشرقين على مصادر السيرة وهي تصف ما كان يصيب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من أعراض أثناء تلقيهِ الوحي من الإمارات الخارجية التي تبدو على وجهه وعينيهِ وجبينه ، من شحوب أو احتقان أو تصبب عرق ، أو ما يرافق ذلك من أصداء أو أصوات مثلما تذكر الروايات الإسلامية ، فعن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قولها :" ولقد رأيتهُ ينزل عليهِ الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنهُ وأن جبينهُ لَيتفصد عرقاً " (٣٠) . وعن عبد الله بن عمر :" قلت يا رسول الله هل تحس بالوحي . قال : نعم أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك ، وما من مرة يوحى إلي إلا ظننتُ أن نفسي تفيظُ مني " (٣١) .

أن الأعراض الخارجية هذهِ ، والتي وصفت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولكونها مشابهة لإعراض مرض الصرع جعلت من بعض المستشرقين يتصورون أو يصورون على أن ما كان يصيب النبي (صلى الله عليه وسلم) من أعراض خارجية ما هي إلا نوبات من الصرع ، وأن تلك النوبات حينما تصيبهُ كان يغيب عن صوابهِ ويسيل العرق منهُ وتعتريه التشنجات ، فإذا ما أفاق من الغيبوبة ذكر أنهُ أوحي إليه وتلا على أتباعهِ ما يزعم أنهُ من وحي ربهُ (٣٢).

وقد كفانا بعض المستشرقين الرد على هذهِ الرؤيا الخاطئة ومنهم المستشرق الإنكليزي وليم ميور الذي قال :" وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطئ من الناحية العلمية خطأ كبير . فنوبة الصرع لا تترك عند من تصيبهُ أي ذكر لما مر بهِ أثناءها ، بل يُصاب بالنسيان خلال هذهِ المُدة من حياتهِ بعد أن يفيق نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل بهِ خلالها ، لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل عندهُ تمام العطل . وهذهِ أعراض كما ثبتها العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبّي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبه حواسهُ المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عَهدَ للناس بهِ ، يذكر بدقة كل ما يتلقاهُ بعد ذلك على

أصحابه ثم أن نزول الوحي لم يكن مُقترنا دوماً بالغيبوبة الحسية مع وجود الإدراك الروحي ، بل كثيراً ما يحدث الوحي والنبي في تمام يقظتهِ العادية " (٣٣) .

ثانياً:- الوحي المحمدي بمعنى الحدس، الهوس ، الأوهام و الخُداع .

لقد اتفقنا على أن ظاهرة الوحي المحمدي قد أخذت من مخيلات المستشرقين مأخذاً واسعاً ، فتعددت وتنوعت رؤاهم وتصوراتهم عنها ، حتى ظهر التضارب والأختلاف في كتاباتهم . فبينما نجد المستشرق وليم ميور يُفند مزاعم من يقول : أن ما كان يصيب محمد (صلى الله عليه وسلم) ما هو إلا نوبات من الصرع ، مستخدماً الأدلة العلمية في طرح الحقيقة. من المضحك جداً أن نجدهُ في الكتاب نفسهُ يفقد تلك الروح العلمية ، عندما يصور الوحي المحمدي وكأنهُ شيء من الوهم أو الحدس الصادر من الذات البشرية كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد تبناه على أنهُ وحي إلهي.

ولعل المستشرق ميور قد استفاد من أحداث رحلتي (٣٤) الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) إلى الشام ليؤكد على تأثيرهما على عقلهِ وتأملاتهِ اللاحقة التي سبقت نزول الوحي الشريف ، من خلال الآثار والرموز القديمة والأساطير اليهودية وتأثيرها عليهِ وهو يشاهدها لأول مرة ،ومن خلال أداء المجتمع المسيحي والكنائس بكل طقوسها والتجمعات المسيحية المتكررة لأجل العبادة وكل هذهِ المشاهدات يراها ميور قد أستولت على انتباههِ واهتمامهِ ، فأثرت تأثيراً عميقاً في نفسهُ (٣٥) .

والمتتبع لكتاب ميور (حياة محمد من مصادرها الأصلية) يجد المؤلف فيه يحاول دوماً أن يجعل من تلك المشاهدات وقد أثرت في نفس النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فجعلتهُ ينصرف إلى التأمل والتفكير المنعزل والطويل بحثاً عن الدين الحقيقي، وفي غمرة هذهِ الظروف توهم النبي بأنهُ يتلقى وحياً من الله (٣٦) . ولكي يدعم فرضيتهُ هذهِ يقدم ما يعتقدهُ دليلاً ، فيشير إلى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد استخدم الوحي لتحقيق أهداف وغايات دنيويه لمصلحتهِ ويستدل على ذلك بالآية (٣٧) من سورة الأحزاب (٣٧) ، والتي أمرهُ الله سبحانهُ وتعالى فيها بالزواج من السيدة زينب بنت جحيش (رضي الله عنها) . وعلى اساس هذا (الدليل الصارخ) يرفض ميور أن ينظر إلى الوحي المحمدي على أنهُ صادر من الله تعالى ، ويؤكد على كونهِ مجرد حدس أو وهم لا يتعدى في صدورهِ عن الذات البشرية (٣٨) .

وليس بعيداً عن طروحات ميور ، نلاحظ المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون يقتفي نفس المنهج في نفي تهمة الصرع عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولكنه يصف الوحي المحمدي بالهوس . وخيراً لنا أن نقتطف نصاً من كتاباته يقول فيه:"وقيل أن محمداً كان مصاباً بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي ، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصروا محمد وعائشة منهم ، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه إعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان ، وإذا عدوت هوس محمد ككل مفتون وجدته حصيفاً سليم الفكر ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات ، ... فأهل الهوس وحدهم ... هم الذين ينشئون الديانات "(٣٩).

وعلى هذه الشاكلة تتسابق خيالات المستشرقين لتفسير الوحي المحمدي ، غير أن جميع هذه التفاسير لا تحاول أن تتقرب من حقيقة هذا الوحي ، بل وكأنها لا تريد آلا إثبات المرجعية الناشئة في صدوره من النفس البشرية ونفي حقيقته الإلهية .

كما لم يفوت بعض المستشرقين الفرصة من أن يوجهوا لشخص النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تهمة خداع المسلمين في قضية الوحي في قولهم :"بأن محمداً لم يكن يؤمن بما يوحى إليه ،وأنه لم يتلق الوحي من مصدر خارجي عنه ، بل أنه ألف الآيات عن قصد ثم أعلنها للناس بصورة خدعهم بها وجعلهم يتبعونه ، فضمن لنفسه بذلك من السلطة ما يرضي طموحه وحبه للمتعة" (٤٠) .

ولقد كان الأديب الإنكليزي توماس كارليل أول من انبرى لدحض هذه السخافات . مصرحاً بأنه من العار على أي متمدن أن يصغي إلى هذه التهمة، أن يصغي إلى ما يظن أن محمداً كان خداع ومزور (٤١) . ومن اللطائف الإلهية أن يتوجه من بين المستشرقين من يفند بأدلة منطقية تلك الادعاءات حين قال : "ومثل هذه النظرة للأمور غير معقولة وذلك لأنها لا تفسر لنا بصورة مرضية لماذا كان محمد في المدة المكية مستعداً لتحمل جميع صنوف الحرمان ، ولماذا فاز باحترام رجال شديدي الذكاء ذوي أخلاق مستقيمة. كما أن ذلك لا يجعلنا نفهم كيف نجح في تأسيس ديانة عالمية أنجبت رجالاً قداستهم واضحة للعيان ، لا يفسر كل ذلك بصورة مرضية إلا إذا افترضنا صدق محمد أي أن نعتقد بأنه كان مقتنعاً حقاً بأن القرآن ليس ثمرة خياله بل أن ما نزل عليه كان من الله "(٤٢).

ثالثاً :- الرؤية الأستشراقية الأخيرة للوحي المحمدي (المعاصرة).

بين مجموعة كبيرة من دراسات المستشرقين ، والتي لا تخرج في نظرتها للوحي المحمدي عما ذكرناه ، نقف على رؤية المتخصص الأول بين الغربيين في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، المستشرق الإنكليزي مونتجمري وات الذي يُعد ممثلاً بكتاباتهِ لوجهة نظر الغرب في السيرة النبوية ، ويؤكد هذا الأمر المستشرق فرانسسكو غار بيلي بقولهِ : " أن مؤلفات وات التي امتد تأليفها بين سنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٠ تمثل آخر وجهة نظر علماء الغرب بالنسبة إلى نبي الإسلام " (٤٣).

لقد نال الوحي المحمدي اهتمام كبيراً من لدن هذا المستشرق ،إذ أفرد الفصول والمباحث لمناقشتهِ ، ووصل بهِ الأمر أن أصدر كتاباً مستقلاً بموضوع الوحي حمل عنوان (الوحي الإسلامي في العالم الحديث) (٤٤) فكان من بين أواخر مؤلفاتهِ عن الشرق الإسلامي .

عُد المستشرق وات أن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كان صادقاً في القول مخطاءاً بالاعتقاد بشأن الوحي (٤٥) . بمعنى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يسعى لخداع اتباعهِ عندما ادعى بأن الله تعالى انزل الوحي عليهِ . ولذلك فهو صادق في القول لأنهُ لم يشأ ممارسة الخداع ، ولكنهُ في الوقت نفسهُ مخطاء بهذا الاعتقاد ، لأن الله سبحانهُ وتعالى لم ينزل الوحي عليهِ كما أعتقد هو .

ثم يفسر نشوء هذا الاعتقاد الخاطئ ، الذي يراهُ قد بدأ عندما أخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) يتصور أموراً غريبة لا يعرف حقيقتها ، فلجأ إلى ورقة بن نوفل ، وما لبث الآخر أن فسرها لهُ على أنها وحي صادر من الله كما هو حال الأنبياء ، فأعتقد النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك وآمن وعمل بموجبهِ (٤٦) ، ولذلك فهو لم يسعى إلى الخداع والتحايل . ولنقتطف نصاً بهذا الشأن :"فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني أن القرآن وحي حق وأنهُ من صنع الله ، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض ، أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليهِ من عند الله وأن نؤمن في نفس الوقت بأنهُ كان مخطأً " (٤٧) .

الأدلة الإسلامية على كون الوحي المحمدي آلهي لا بشري

القران الكريم هو كلام الله تعالى ، المُنزل على خاتم أنبيائهِ محمد بن عبد الله (ص) ، وبالوحي نزل القرآن فكان خير رفيق للنبي(صلى الله عليه وسلم) طيلة ثلاث وعشرين سنة .

ولم يكن (صلى الله عليه وسلم) منفردا بشرف نزول الوحي عن باقي الأنبياء ، بل شاركهم في هذه الظاهرة . على الرغم من وحي جميع الأنبياء نابع من مصدر واحد ، آلا أن

كثير من المستشرقين لم يحاولوا أن يشككوا أو يجرحوا وحي نبي الله عيسى (ع) بأسم المنهج العلمي ، بل صانوه وأقاموا على انه بديهي التسليم وبعيد عن مجال الجدل العقلي أو العلمي التجريبي (٤٨).

وفي الوقت نفسه كان الوحي المحمدي موضوعا مهما بالنسبة لهم ، إذ لم ينظروا إليه على انه بديهي وبعيد عن مجال الجدل العقلي أو العلمي التجريبي كما هو حال وحي سيدنا عيسى (عليه السلام) . أفلا يقضي المنطق السليم إذن أن تكون النظرة إلى وحي الأنبياء نظرة واحدة مثلما هي طبيعة الوحي واحدة .

أن كل ما توصل إليه المستشرقون من تفسيرات لظاهرة الوحي المحمدي هي لا تطابق حقيقة الوحي ، فقد عبر عنها بعض المستشرقين بالحالات النفسية أو الإلهامية أو المكاشفة (٤٩) ، وبالإمكان إدراك الفرق بين هذه الحالات التي أبدعها المستشرقون وبين طبيعة الوحي الإلهي من خلال هذا النص : " وإذا كان الوحي فعلا مميزا ، فهو صادر عن فاعل مريد وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى ، وليس الكشف والإلهام كذلك . أن مرد الإلهام يعود عادة إلى الميدان التجريبي لعلم النفس ، ونزعة الوحي النفسي في انقداحها تعتمد على التفكير في الاستنباط ، والمكاشفة تتأرجح بين الشك واليقين . أما الوحي فحالة فريدة مخالفة لا تخضع إلى التجربة أو التفكير . ومتيقنة لا مجال معها للشك ، مضافا إلى أن حالات الكشف والإلهام والإيحاء النفسي لاشعورية ولا إرادية ، والوحي ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والإدراك التامين" (٥٠) .

ثم أن مصدر الإلهام والحدس الواقع ، هو باطني (داخلي) ومتأثر بالتجربة البشرية ، في حين أن مصدر الوحي هو خارجي غير متأثر بنفسه الداخلية أو أي تجربة بشرية ، وغير ملتزم بالحدود الطبيعية للعقل البشري، لأنه ينقل للإنسان حقائق تتجاوز نطاق إدراكه العقلي . أضف إلى أن القرآن الكريم ظل ينزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يقارب الثلاث والعشرين سنة ، فهل يعقل إذن أن يلازم الحدس أوالالهام أو أي حاله أخرى ابتدعها المستشرقون طيلة هذه السنين ويكون معه في كل ما مر من أحداث صغيرة وكبيرة شهدها الإسلام ؟ . وهل يُعقل أن تحمل هذهِ الحالات النفسية كل هذهِ الحكمة والأحكام وكل ما في القرآن من إعجاز؟

ولعل مما يُفند طروحات المستشرقين حول مصدر الوحي المحمدي ، هو الفارق الكبير بين النص القرآني (الكلام الإلهي) وبين الكلام النبوي ، فكلاهما تلقاهما المسلمين مباشرة من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وبالتالي فالفارق كبير جداً بين النصين ، الأول كلام إلهي والثاني كلام بشري ، فكيف إذن لشخص مهما بلغت إمكانياتهُ التعبيرية أن ينطق في وقت واحد بأسلوبين مختلفين ، ويصف الأول بأنهُ قرآن من عند الله ، ويصف الثاني بأنهُ حديث نبوي صادر منهُ عليهِ أفضل الصلاة والسلام . وكيف يتسنى لهُ التمييز والتفريق بين نوعين من الكلام لكل منهما طابعهُ المميز وصياغتهُ الخاصة ؟ أليس من المنطق أن ينسب شرف تأليف القرآن الكريم إلى نفسهُ (صلى الله عليه وسلم) لو كان فعلاً من إنشائه وتأليفه ؟ (٥١) .

إن المتتبع لِسيرة النبي الكريم في حركاتهِ وعباراتهِ ، وفي رضاهُ وغضبه وفي كل ما صدر عنهُ من أفعال وأقوال ، سيلاحظ حتماً بعض المواقف والحالات التي يمُر بها لا تتناسب مع دعوى نسب القرآن إليهِ ،كالعتاب الإلهي أو الحث الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) للقيام بما يتردد القيام به من الأوامر الإلهية. فقد وردت آيات عديدة تُبين مثل هذهِ الحالات ، كردود أفعال غير راضيه لِقيام النبي (صلى الله عليه وسلم) بعمل ما ، وهذا بحد ذاتهِ يبعد الفكرة القائلة بأن القرآن هو من صنع محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فكيف يؤلف القرآن وبالوقت عينهِ ينتقد نفسهُ . وهذا ما نلمسهُ في قولهِ تعالى : " يأيُها النبيُ لِمَ تُحرمُ ما أحلَ اللهُ لَكَ تبتغي مرضَاتَ أزواجكَ واللهُ غفُورُ رَحيمُ " (٥٢) ، وقولهِ : " ... وتُخفي في نفسكَ ما اللهُ مُبديه وتخشَى النَاسَ واللهُ أحقُ أن تخشاهُ ... " (٥٣) ، وقولهِ : " عفَا اللهُ عنكَ لم أذنتَ لهم حتَى يتبينَ لَكَ الذين صدَقوا وتعلَم الكاذبينَ " (٥٤) ، وقولهِ تعالى : " ما كانَ للنبيّ والذين أمنُوا أن يستغفروا للمشركينَ ولو كانُوا أولِي قُربى من بعد ما تبيَّنَ لهمُ انهم أصحابُ الجَحيم " (٥٥) ، وقولهُ : " ما كانَ لِنبيّ أن تكونَ لهُ أسرَى حتَى يُثخنَ في الأرض تُريدُونَ عرَضَ الدُنيا واللهُ يريدُ الآخرة واللهُ عَزيزُ حَكيمُ " (٥٦) .

ولعلَ المنطق السليم يجد في التقريعات المؤلمة التي جاءت في عدد من آيات القرآن الكريم ، دليل على كونها صادره من الله تعالى ، وإلا لو كانت صادرة عن وجدان النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعبرةً عن استنباط تفكيرهِ ، أكانَ يُعلنها عن نفسهِ أمام المسلمين بهذا الشكل من التهويل والتشنيع ؟ الم يكن الأفضل لهُ في السكوت عنها ستراً على نفسهِ ، واستبقاءً لِحرمة أقوالهِ وأفعالهِ ؟.

إن القرآن الكريم لو كان مثلما تصوّر وصوّر بعض المستشرقين يفيضُ عن وجدانه (صلى الله عليه وسلم) لكان بمقدورهِ عند الحاجة أن يكتم ما يريد عدم إعلانهُ من ذلك الوجدان ، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذهِ الآيات ولكنهُ الوحي الإلهي لا يستطيع كتمانهُ (٥٧).

المصادر

١) محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت: ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، دار صادر (بيروت ـ لا . ت) ،جـ٥ ، ص٣٧٩ ، كذلك ينظر : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت : ٧٢١هـ) ، مختار الصحاح ، تحقيق محمود خاطر ، مكتبة لبنان ،(بيروت ـ ١٩٩٥)، ص٢٩٧ .

٢) لمزيد من التفاصيل في المعنى اللغوي للوحي ينظر : ستار جبار الأعرجي ، الوحي ودلالاتهِ في القرآن الكريم والفكر الإسلامي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ـ ٢٠٠١) ، ص ص٩ ـ ١٤ .

٣) المصدر نفسهُ ، ص١٤ .

٤) القصص ، آية (٧) .

٥) المائدة ، آية (١١١) .

٦) النحل ، آية (٦٨) .

٧) النساء ، الآيتان (١٦٣ ـ ١٦٤) .

٨) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ،ط١٠، دار العلم ،(بيروت ـ ١٩٧٧) ، ص٢٢.

٩) النجم ، الآيات (١ـ٥) .

١٠) الشورى ، آية (٥١) .

١١) سيد محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ، دار الكتب الإسلامية ، طـ٣ ، (طهران ـ لا. ت) ، جلد١٨ ، ص٧٥ .

١٢) البقرة ، آية (٩٧) .

١٣) يوسف ، آية (٣) .

١٤) البروج ، آية (٢٠) .

١٥) الطباطبائي ، الميزان ، جلد ١٨ ، ص٧٥ .

١٦) إبراهيم ، آية

١٧) يوسف ، آية (٤) .

١٨) ينظر: ستار الأعرجي ، الوحي ، ص ١٣٤ .

١٩) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري (ت : ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ /) ، صحيح البخاري ، دار الفكر ، (بيروت ـ ١٩٨٦) ، جـ١ ، ص٦ . ينظر كذلك : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت : ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، (بيروت ـ لا . ت) ، جـ ٣ ، ص٢ـ٣ .

٢٠) الشعراء ، الآيتان (١٩٣ - ١٩٤) .

٢١) البقرة ، الآية (٩٧) .

٢٢) التكوير، الآيتان (١٩-٢٠) .

٢٣) ستار الأعرجي ، الوحي ، ص ١٤١- ١٤٢ .

٢٤) أبن كثير ، البداية والنهاية، جـ٣ ، ص ٢١ .

٢٥) النجم ، الآيات (٨ - ١٠) .

٢٦) ستار الأعرجي ، الوحي ، ص ١٥١ .

٢٧) Southern, Western Views of Islam in the middle ages , (Harvared –١٩٦٢) , P. ٣١.

٢٨) صلاح الدين خودابخش ، الحضارة الإسلامية ، ترجمة علي حسني الخربوطلي ، دار الثقافة (بيروت - ١٩٧١) ، ص ص ٤٦ - ٤٨ .

٢٩) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

٣٠) أبن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٣ ، ص ٢١.

٣١) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص٢٢.

٣٢) Emile Demengham, the life of Mohomet, N.Y. Dialpress - ١٩٣٠, p. ١٣٥ - ١٣٦.□

كذلك ينظر : رونالد فكتور بودلي ، حياة محمد الرسول ، ترجمة عبد الحميد جودة السّحار ومحمد محمد فرج ، (القاهرة - ١٩٦٤) ، ص ٥٢ - ٥٣ .

٣٣) THE life of Mohammed, pp. ١٤- ٢٩.

كذلك ينظر : بودلي ، حياة محمد الرسول ، ص ٥٢ - ٥٣ .

٣٤) الرحلة الأولى التي قام بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع عمه أبا طالب إلى الشام كان بعمر اثنتي عشرة سنة ، وقد أتاحت هذه الرحلة الطويلة للنبي (صلى الله عليه وسلم) على الرغم من صغر سنه أن يشاهد العديد من القرى والمدن الواقعة على الطريق التجاري بين مكة والشام ، كما أنهُ قد شاهد رهباناً ونصارى يقيمون في تلك الأماكن . أما رحلته الثانية ، وهي إلى الشام أيضاً ، فكانت عندما كلفتهُ السيدة خديجة(عليها السلام) القيام برحلة تجاريه ، وقد أرسلت برفقته غلاماً لها يدعى ميسرة ، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أحد القوافل المتجه لبلاد الشام فباع بضاعته واشترى ما أراد ، ثم أقبل راجعاً إلى مكة ، فكانت تلك التجارة رابحة موفقة ، ويبدو أن عمره (صلى الله عليه وسلم) لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين في رحلته الثانية . ينظر:

٣٥) THE life of Mohammad, p. ١١- ١٢.

٣٦) Muir, the life of Mohmmad, p.٥٤.

٣٧) قولهُ تعالى :" وإذ تقول للذي أنعم الله وأنعمتَ عليه أمسك عليك زوجك وأتقِ الله وتُخفي في نفسكِ ما الله مُبديه وتخشى الناسِ والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيدُ منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجُ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولاً " .

٣٨) Muir, the life of Mohammad, p.٥٤ – ٥٥.

٣٩) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١١٤ .

٤٠) ينظر : مونتغمري وات ، محمد في المدينة ، ترجمة شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، (بيروت ـ ١٩٥٢) ، ص ٤٩٥ .

٤١) توماس كارليل ، الأبطال ، ترجمة محمد السباعي ، (بيروت ـ ١٩٦١) ، ص ٥٨ .

٤٢) وات ، محمد في المدينة ، ص ٤٩٥ .

٤٣) Gabrieli, Muhammad and conqusts of Islam, (London – ١٩٦٨) ,p.٢٠ .

٤٤) Montgomry Watt, Islamic revelation in the modorn World, (London – ١٩٦٩).

٤٥) ينظر : وات ، محمد في المدينة ، ص٤٩٥ ـ ٤٩٦ ، كذلك ينظر :

The Encyclopaedia of religion, (New York – ١٩٨٧), vol□, p – ١٣٨.

The Encyclopaedia Britanica, (chicogo – ١٩٨٦), vol – ٢٢, p.٢.

٤٦) The Encyclopaedia Britanica, p.٢.

٤٧) وات ، محمد في المدينة ، ص ٤٩٦ .

٤٨) ينظر : عرفان عبد الحميد فتاح ، دراسات في الفكر العربي الاسلامي ، دار الجيل (دمشق ـ ١٩٦٤) ،ص١٤٨ .

٤٩) المقصود بها : الوحي النفسي الصادر من النفس البشرية ويعبّر عنه بـ (Intuition) .ينظر : مالك بن بني ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، (لبنان ـ لا . ت) ، ص١٦٧ .

٥٠) محمد حسين علي الصغير ، " ظاهرة الوحي والمستشرقون " بحث منشور في كتاب المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي ، (النجف ـ ١٩٨٦) ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ، كذلك ينظر : مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

٥١) ينظر : محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم . نظرات جديدة في القرآن ، ط ٢ ، دار الفلم ، (الكويت ـ ١٩٧٠) ، ص ٢٢ـ ٢٣، كذلك : ينظر التهامي نقرة ، " القرآن والمستشرقون " بحث منشور في كتاب مناهج المستشرقين ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون ،(الرياض ـ ١٩٨٥) ، جـ١ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

٥٢) التحريم ، الآية (١) .

٥٣) الأحزاب ، الآية (٣٧) .

٥٤) التوبة ، الآية (٤٣) .

٥٥) التوبة ، الآية (١١٣) .

٥٦) الأنفال ، الآية (٦٧) .

٥٧) ينظر : محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، ص ٢٥ .